

قراءة في قصائد

جيم*

يوسف الجديري

في إشارات التوحيدى الشمانى عن الفجر والشكوى والهزيمة والحرق والموت والرؤىا والختام، علامات للوصول الى النقاء والتطهر والتضحىة فى سبىل أن يكون النقاء هو شرعة المبدع الحقىقى، لذلك حىن يعجز هذا النقاء عن التحقق عبر إرهابات الشاعر.. النبى، فإن الموت على قارة الطريق، وحيداً، عارىاً إلا من غطاء الحقىقة سىكون هو الطريق الى الخلود:

[آه.. يكفى

فأنا رجلٌ أدبْتُ لسانى

حتى استخفى فى الصمت

بقناع بنى] (ص ١٥)

ثمّة حرق قبل الموت وعلى قارة الطريق.. قد يكون بديلاً عنه أو مدخلاً إليه..

[احترقى تهوىمة الروح وفجر الكلمات

احترقى.. ماذا جنيت من هوانا الضائع المضطرب

إلا دموعاً تغتدى كوردة من لهب

أو حسرة.. ما تنتهى..] (ص ١٧)

ويكاد الشاعر مرّات عديدة أن يعقد مع الحياة أكثر من وشيجة حب وانتهاء.. فىطرب لبلبل وىناغى عصفوراً ويتساءل كيف يسكن الهدهد فى دفاء العش ويحلم بين صغاره.. فى حىن يضع هو بين أوراقه الغامضة وأفنعتة العديدة وفرايته المريب:

[أنت فى عشك الدافئ

وأنا فى عذاب المقيّم

أنت فى عشك الغامض
بين أطفالك البيض والسمر
بين أزهارك العارىات.. وأحلامك اللاهثة
وأنا بين أوراقى الغامضة
بين أقنعتى.. وفرايتى المريب..] (ص ٤٧)

فى «قيامة السىدة» انتظار لقيام المطر الوحشى حىث تهرّ الأرض ويفور التنور.. لىحترق الشاعر أو يتحوّل إلى صاعقة فى عرشه.. وتتوالى الصور المتنافرة الغربىة، لتشكل اللوحة الدرامىة الضابجة باللامعقول والسحرى والتخىل والمذهل.. فبىن ضحكات النمر وىكاء الفنافذ.. تبسم الخطايا السبع فى الروح.. بعد مآدبة السىدة تواجها أبجدىة البحر بكل أغارىدها وسفنها البعىة وشمسها الغابئة وأبوتها الحانىة:

[البحرُ غرّد فى دمى والبحر يقنات الحىن

مالى أراك معدّباً والموج سىدنا الدفىن] (ص ٥٦)

هل يكتب البحر أخيراً قصّة الخطيئة أو يفرخ فى الدم سرباً من الموق.. أى تساؤل مدهش ىخنى الشاعر.. فى حىن قد ىحن البحر أحياناً أو يقسو مثل أب صارم ىحمل السكىن لىذبح ابنه فى حلكة لىل بهىم:

[البحرُ فرخ فى دمى سرباً من الموق] (ص ٦١)

[البحر أبٌ ىذبحنى اللبلة بالسكىن..] (ص ٦٩)

أى عالم رهىب من الانفعالات والعذابات والحنون يعىشه الشاعر الذى ىذهلنا بصوره النادرة التى تتحدّى الحدود القصوى لمىتافىزىقا

اللون والعلاقات اللامعقولة بين الأشياء . فكل ما تحت رؤية الشاعر من ظواهر كونية يمتزج بأحاسيسه ورؤاه الخالقة المذهلة . . فهو مع الحاضر والمستقبل . . وهو مع التاريخ حتى في تراجعاته الحلمية الغربية التي لا تتخلّى عن المنطقي والواقعي وفي أقصى تلك الهينيات الروحية العذبة . . ها هو الشاعر يعانق فيلسوف المعرفة، رهين المحبسين في حالة صعبة من التيه :

[باسمك قُدرتِ الأقمار منازل والأيام سنين
ومضت من خلفي مئذنة
لم أرقبها والكأس تمزقني إرباً إرباً
الآن
الشمعة قد سقطت في الماء الأسن
أولد من موتي مرأت
لأعذب منقياً كل صباح؟] (ص ٧٥)

ولا يني الشاعر يؤكد أن بصيرة المعري هي الأقوى . . وحين تضيق الدنيا في صدره وتعتريه عذابات الوحدة والشعور بالانسحاق، فإنه لا يلبث أن يصرخ ويرفض . . بل ويترجى وهو في أقصى درجات عذاباته كإنسان . . ويكاد النور هنا يجسّد هاجسه المدمر . .

[لا تتركني للريح لتنبش أيامي
لا تتركني للموت ليلقمني الوحشة والبحر وراثي

لا تتركني للطوفان
ودمي قد أبصر خفق حمامات عادت
برحيق النور . .] (ص ٨٠)

لقد انعكست عذابات المعري على الشاعر فغمره موج من اليأس لم يجد خلاصاً منه سوى النوم . . ولذا راح يبدي ضجره من الجري وراء السنوات . . ويتكشّف لديه زيف الأشياء كلّها مرّ عام من عمره واقترب أكثر فأكثر من حافة العبث واللاجدوى وفقدان المعنى لكل ما كان يطمح إلى تحقيقه :

[أتعبنا الجري وراء السنوات
قد أتعبنا حرف كالثور الهائج، كيف نروضه
بأظافرنا . . وأظافرنا ملئت بأنين الدم وأنين الراس
نم
يا من أسقطت الورد في البئر
يا من أسقطت الورد في بئر الحراس

نم

لا عاصم هذي اللحظة، من أمر الناس
والناس نيام . . [الناس] (ص ٨٤)

في قصيدة (الرجل) نداء حلاجي واستغاثة عميقة للخلاص من دناءة النفس وما في الصدر من غل ومقت إلى حدّ الدعوة لقيام الساعة وانهار هذا العالم الذي طفحت القذارة فيه وانحسر النقاء والحب . .

[أقم الساعة
سورك من حولي . .
يا من باسمك يهتز القاع
وتغوص الطعنة في الأعماق

امنحني عينين
شفة ويدين
وانزع ما في صدري من غلّ وعذاب
أقم الساعة
سورك من حولي . .

يا من يتركني في الريبة
أحيا وأموت وأبعث كي أقبر وسط نباح الأموات
(ص ٨٨ - ٨٩)

ترى . . هل الزمن يمنح الأساء للأيام . . أم يحدث العكس فتحدد الأيام هوية الزمن؟ هذا الهولي والانهائي . . وينسج الشاعر قصائده من هذه الجزئيات . . فإذا كان يوم الأربعاء مدخلاً للخميس وهو يسبق نهاية الأسبوع . . فإن اليوم الذي يليه إنما يشكّل في فلسفة الخلق سابع أيامه . . ما دام الخلق قد تمّ في ستة أيام . . ومنذ البدء . . بدء الديوان الشعري . . نتلمس هذه المردودات الميثولوجية القابعة في لاوعي الشاعر . . تاريخياً ووراثياً . . وتوهج هذه القوانين والصور الدينية في أكثر من قصيدة للشاعر لتمنح شعره المزيد من العمق والأصالة والصدق، لذلك تحيي هذه المفردات والجمل القدسية كافتتاحيات مشرقة لقصائده . .

[لو أنزلنا هذا الفجر المحموم على جبل للغيرة والشمس
لرأيت الماء سعيداً] (ص ٧)

[الرحمن

خلق الإنسان

علمه ما لم يعلم] (ص ١٩)

ولو غادرنا هذا العالم الناضح بالإيمان الذي يمنح القصيدة خشوعاً ورهبة . . فإننا نظلّ لفترة أسارى هذه المقاطع والصور

الشعرية الغربية من قصيدة «الأربعاء - الخميس»:

[الأربعاء تناسلت وتَمَزَقَتْ قطعاً ولكن الخميس
من موته يختار موضوعاً لأرسم طعنةً في الخاصرة] (ص ٩٧)
[الأربعاء تناسلت جثثاً بفجر الأقحوان

فمصى الخميس

في حلمه ذكرى بحارٍ ما تزال

تشدو قليلاً.. ثم تعوي للرمال] (ص ٩٧)

قصيدة - أساطير - تشكيل شعري من أربعة مقاطع .. ففي
مقطع الأفاعي تلوينات رمزية .. فمرة للشجر وأخرى للسنوات
وثالثة للعاشق الباكي وثمة أفعى لا اسم لها .. بينما الأفعى الأخيرة
هي للنزهة .. أية سخزية معبأة بالحزن تتساقط من أنامل
الشاعر وأنفاسه معاً .. في مقطع - الحصار - عوالم غريبة من
الإحباط والخوف .. وكل الطموحات غير المتحققة

[أتقدّم نحوك يا قلبي

بأساطيلي وملائكتي وجنودي

أتقدّم أحمل سرّ الماء

وعذاب الشمس] (ص ١٠٢)

[في عرشك أكتب: حاصرني

النمر الكاسر والليل الناري .. وحطّمني الزلزال] (ص ١٠٢)

وتتنامى بقية المقاطع - الجبل والهندي - والرواية .. وبكل
مقاطعها الجزئية لتتشكّل صوراً شعرية أخاذة:

[يا قلبي .. طفل أنت

أقلامك ضاعت

وحقيبتك الخضراء

سقطت في الطين] (ص ١٠٣ - ١٠٤)

[وأجبتُ ورأسِي فوق الرمح:

«خذُ

ذكرى طعنات النمر الكاسر

طعنات الوحش، الإنسان»] (ص ١٠٩)

في قصيدة - جيم - التي اتخذها الشاعر عنواناً لمجموعته ..
تفتّح الأزهار من جذع الليل ومن بين الرمال والحصى .. وتكبر
لتصبح قصائد ملئية بالأوراق الوحشية والأشجار المرّة والأشلاء
أيضاً .. وتحوّل القصيدة إلى حكاية عن ثلاثة في دار واحدة ..
الشاعر وعذابات النائمة وآخر لا يعرفه .. وتبوح أشجار الليل
بالأسرار ..

[ماذا قالت أشجار الليل هناك

وبأيّ نسيج مقطوع الكفّين

باحث بالأسرار .. أية أسرار؟

ولماذا قامت تلك الجثة شقّت

كتان الجسد الأبيض

ندبت .. وعوت

لم أفهم شيئاً ..] (ص ١١٥)

قصيدة - الثعالب - متفرّدة .. تخلق عالمها الخاص بها .. غير أنها
تظلّ رغم ذلك واقعة في إيسار التغريب والغموض والسريالي إلى حدّ
ما:

[أقفرّت ليلة الحب

ودمي ثعلب ميت

أترى امرأةً صيغ ميسمها من حنان

ثم من رثة الكُشتبان؟] (ص ١٢٠)

وتأتي قصيدة - طيور - حيث طائر الوهم لا يوحى إلا بحقيقة
غريبة ..

[بهدهوء أعمى

ينقر قلبي طير الوهم

يوهمني أن لا معنى

إلا لفحيح الموت] (ص ١٢٣)

وحين يغيب الهدهد فإن الطائر الأسود أو غراب الليل يقرأ أسماء
الناس بينما يبدو طائر الموت عارياً كالتفاحة وعميقاً كالموت .. أمّا طائر
الشؤم فيخرج من منفاه ليحلّ في المبعى .. في قصيدة كهيعص -
تصدمننا صور غريبة شعرية ومطلّسة في الوقت نفسه ..

[نخلة في دهاليز غامضة ظلّلتها السيوف

جذعها الكاف

جذرها الهاء والياء والصاد

سعفها العين .. أورقت عين] (ص ١٣٠)

في قصيدة - طلسم - وهي آخر قصائد المجموعة تتوالى الصور،
كثيفة، ملوّنة .. تحمل من الترميز الشيء الكثير:

[طاء

طار الطائر

واشتاق إلى تيجان النخل .. صبوات الزيتون وألحاظ الماء

حام الطائر

حطّ على قلب الميت أحياه

ماذا تقول الأسطوانة؟

محمود علي السعيد



ويقول لي من صدق الرؤيا حقيقةً
فأهزّ عرش الطقس من أعماقه
وأدقّ صدرك يا فلسطين الجراح
وأنت بوصلة الجهات
إذا أضاع الله وجهه الله
في وطن تشظى
محمود لولا شمس كنعان الفلسطيني
ما اكتملت بلاد الشام
ولولا القدس
ما كانت جرار القمح تدفق
لولا ثورة القسام
ولولا صرخة الأطفال في صبرا
وأسئلة الحجارة
ما استوت في الشمس أجنحة الغمام
محمود والقمر الفلسطيني يسطع
فوق أرجاء المخيم
وحقبة الذكرى
وأوراق من النارنج تحفّق في تضاريس السلام
كرمي لوجه الأرض، والأطفال، والقسم الجديد
قدمت أوراق اعتيادي للخلاص سفيرة البركان
فلتسقط شعارات الخليد
من مهرجان الدم تشتعل القصائد
من عبوة التفجير تنطلق الأساطير الجديدة
من رقعة في الشمس تنشق الإضاءة
من ومضة في الريح ينتصب الجدار
من عالم يمتد بين الجرح والسكين تبرق صرخة دموية
لتصوم كل فصاحة الأسرار.

ماذا تقول الأسطوانة
قبل أن يسطو على القلب الصدا
تصفر قمصان النخيل
قررت أن أبقى صدى
تتوحد الأشياء في ملكوته
وتجنّ أشرعة البديل
قررت أن أبقى . . .
ودقت ساعة الإشراق
لم أنقص من الكلمات فاصلة
حفظت قصيدة التفجير
وحفظت غضب توهج الأعلام
من جسد الحداثق زنبق التحرير
حفظت ما لا يحفظ الجبناء
لا عاش الجبان
رسالتي أن يستقيم القوس
في شجر تفرع فيه أغصان الياس
لتمسك المقود
وسدى تجاهد
رقصة الأشجار تستشري
ويصدح في العراء السيل
تشب بخاطر العشاق أسئلة قديمة
من أين تبتدىء الحدود؟
من الخراب إذا أردت
ولم يرد
فصل خريطتي الجديدة
أنا المعلق بين مشنقتين فأولوي
يقول لي الوشاة خديعة

قويًا . . وفي هذا شرفه الإبداعي الأصيل . .

(بغداد)

(*) جيم - قصائد للشاعر أديب كمال الدين (صدرت عن وزارة الثقافة والإعلام / دار الشؤون الثقافية، بغداد ١٩٨٩).

من كبوته وخطاياها . . [(ص ١٣٥)

وأخيراً . . ومن خلال هذا النسيج الهارموني الشعري الإبداعي . . فقد تجسّد صوت الشاعر الشاب أديب كمال الدين . . بين عشرات الأصوات الشعرية المتصارعة المتداخلة . . متميزاً . .